الفصل التاسع

فكر ميشال شيحا ما بين الفلسفة السياسيّة والايديولوجيا

يقول ميشال شيحا: "أمَّا أنْ يتركّز انتباه كل منا إلى هذا الحد على السياسة الداخلية، فذاك أمرٌ لا يعوزه الموجِب ونحن لا نعود إليه بكل هذا الالحاح لمجرد المتعة"[1]. تُعالج مقالات هذا الكتاب مواضيع عديدة: الاستقلال، الدستور، الإصلاح، التوازن، اللغة، الرأي العام، الطائفية، المثال، الممكن، المجلس النيابي، الثقافة، وحقائق لبنانية أخرى. تناول العديد من الدراسات والمقالات والكتب فكر شيحا، فبحث كلٌّ من العائدين إلى فكره موضوعاً مختلفاً، وذهبوا في التفكير والتمحيص والتحليل مذاهبَ عديدةً، فكان منهم المؤيِّدُ والمعارِض، المادِحُ والهَجَّاء. حاوَلْتُ استنباطَ ما يميّز هذه الدراسات، ما استطعتُ الوصولَ إليه منها سبيلاً، حتى أخرُجَ بما هو جديدٌ، فلاحظتُ أنَّ معظم الدارسين تناولوا فكر شيحا من حيث هو إيديولوجيا، ويسيرٌ منهم يُصنّف كتاباته، بخفرٍ شديدٍ، تحت لواء الفلسفة. طالما أنَّ هذا الكتاب يُمَثّلُ مقالاتِ شيحاً أو بالأحرى أفكارَه، إلا أنه لا يَجمَعُها كلَّها بل ينتخبها، رأيتُ أن أبحث في ما هي الصفة الغالِبة عليها ،من حيث طريقة التفكير، هل هي الإيديولوجيا أو الفلسفة؟ هل نستطيع ترجيح كفّة إحداهما على الأخرى؟

الإيديولوجيا وفلسفة السياسية، تعريفاً

إنَّ بحثاً كهذا أوجَبَ العثورَ على التعريف الأمثل لمفهوم الايديولوجية، فهي كما يُعرِّفها معجم العلوم الاجتماعية والفلسفية: " مُجمل التصورات والأفكار والمعتقدات وطرق التفكير لمجموعة أُمّة أوطبقة أو فئة اجتماعية أو طائفة دينية أو حزب سياسي، وتكون الايديولوجيات عادةً مشروطةً ومحددةً بالظروف المناخية والعادات"[2]. ، أما الفلسفة فلسنا مُضطرينَ تعريفَها بشكل عامّ، بل تعريفُ فلسفةِ السياسة على وجه الخصوص، إذ نحن أمام مُفكرٍّ سياسيٍّ سبَقَنَا كثيرون إلى إثبات صفتِه هذه. تُرسَمُ ملامح الفلسفة السياسية حسب تعبير أنطوني دي كرسبني على النحو الآتي: "أولاً: هي نوعٌ خاصٌّ مِنْ محاولة فهم النشاط السياسي لا تربطه ضرورةٌ منطقية بالطابع المعياري. ثانياً: إنَّ القِيَم السياسية ليست مجرد تفضيلاتٍ،

---

(١) في السياسة الداخلية، مقالة: حديث قصير آخر.

(٢) معجم العلوم الاجتماعية والفلسفية، نيويورك، ١٩٤٤، صـ١٤٩.

ولكنها كيانٌ خاصٌّ يمكن الاستدلال على ملامحه بأساليب البحث العقلي"[1]. سنحاول الآن الكلام على كلّ من الايديولوجيا والفلسفة السياسية ،في فكر شيحا، على التوالي.

أولاً: الايديولوجيا

يبدو كتابُ فواز طرابلسي، صلات بلا وصل، الكتابَ الأبرز الذي تكلَّم على ميشال شيحا من حيث هو إيديولوجي، ولا يَخفى على القاريء الصفة السلبية التي يُطلِقُها طرابلسي على فكر شيحا، مُسقِطاً على هذا الفكرِ، التعريفَ الماركسيّ للايديولوجيا، إسقاطاً لا يخلو من المغالاة في بعض المواضع، فهو تحت عنوان "المُتَفرِّد في تسمياته والتعريفات" يقول طرابلسي: "على أن التسميات والتعريفات ليست من الحِياد والموضوعية بشيء. يُذَكِّرُنا عزيز العظمة بأن التسميات كائنات إيديولوجية بامتياز، وبأنها نتاجٌ خالصٌ للاشكالية الانتمائية؛ حيث الاسمُ يُفتَرَض فيه أن يُعيِّنَ طبيعةَ الشيء أو جوهرَه"[2]، يُصرّح طرابلسي في هذا الفصل، بأن شيحا أجازَ لنفسه إعطاءَ تعريفاتٍ مباشرة للبنان، من خلال إطلاق تسميات وفق صيغة "لبنان بلد..."، التي من شأنها التأثيرُ على الرأي العام، أي تطبيعُ فكرِ العامّةِ بما هو لأجل مصلحة الخاصَّة، هذه الخاصَّة التي يُصنِّفُ طرابلسي شيحا في عِدادِها. إن الرَّدَّ على هذ المقولات يبدو سهلاً إذا ما قرأنا مقالات شيحا بتأنٍ وتَؤدةٍ، على أن لا نجتزيء النصَّ اجتزاءً ، فالأفكار لا تُفسَّر إلا في سياقها كما يُنَبِّهُنا إلى ذلك تفسير النصوص البلاغية، فاقتطاعُ الأقوال يؤدِّي إلى نزعةِ تأويلها بما لا تحويهِ من معانٍ. على هذا، فإن فهمَ أفكار شيحا يغدو صعباً إلا في سياق مقالاتِه جميعها التي هي ضمن ذات موضوع البحث. إنَّ طرابلسي يشير هنا وضوحاً إلى مقالةِ "مواقف عَقَدية"، حيث إنّ شيحا يصف الواقع الحاضر للبنان في أربعة بنود يستخدم في مطلعها عبارة "لبنان بلد" أو "لبنان بلاد"، وهو هنا لا يضع تعريفاً للبنان بل يستخدم هذه الصيغة حسب نمط الموازاة لأجل أن يقول، على التوالي، ما يأتي: يجب أن نحافظ على مجلس النواب،

---

(١) أعلام الفلسفة السياسية، مقدمة المؤلف، صـ١٨.

(٢) صلات بلا وصل، صـ٤٠.

يجب على التشريع أن يكون نافعاً الجميعَ، أن يكون لبنان حَذِراً تجاه المطامع الاسرائيلية، وأخيراً يُشَدِّد على توطيد الأُسرَة اللبنانية.

لا يتفرد طرابلسي في هذه النظرة الشمولية للايديولوجيا، بل يوافقه غيرُ مفكرٍ. يقول ريمون رويّه: "لكن المتعصبين لعقائديةٍ يتخذون واجباً عليهم إجراءَ عمليةٍ جراحيةٍ للمجتمع بحسب "الصُوَر الساذجة" التي عرضَها عليهم معلموهم العقائديون"[١]. سأتبع أسلوبَ البرهان الرياضيّ، على أنَّ الإقناع ليس مَنُوطاً بكثرة الأمثلة بل بدقة التحليل،كما أنَّ مثالاً واحداً كافياً للنفي، لهذا ولأجل النقض نأخذ قولاً لشيحا: "ما حُكْمُ هذه الأحزاب كلها إذن، ومشاريع الأحزاب تلك وغبار الأحزاب والمُحازبين؟ من الليبرالية إلى الشيوعية إلى الاشتراكية، فإلى الديمقراطيةَ (الأصيل منها والزائف) وإلى النازية والفاشية البغيضتين أيضاً،... أفتصلح لنا حقّاً هذه الأدبيات السياسية، ونحن أُناس مجتمعون في وطنٍ روحيٍّ (قبل كل شيء) يحفظنا، باسم روح الايمان والتسامح والحرية من أقدم الأزمنة؟"[٢]، وعلى مبدأ من فمِكَ تُدَانُ، هل يبدو ما يقولُه شيحا إيديولوجيّاً؟

زيادةً في الإيضاح، لنقرأ ما يقولُه عبد الله العروي: " الحزب الذي لا يملك أُدلوجةً[٣] هو في نظرنا حزبٌ انتهازيٌّ، ظرفيٌّ لا يهمّه سوى استغلال النفوذ والسلطة"[٤]. إن العروي، ومن خلال دراسته المعمقة، يرفع الصفة السلبية عن الايديولوجيا، بل يذهب إلى أبعد من هذا، إذ يفترض وجوبَ اقتران كل حزبٍ بإيديولوجيا، وإلا فصِفَتُهُ هي الانتهازية، فهو لا يشجب وجود الأحزاب، إنما يُشَرْعِنُ وجودَها إذا التَزَمَتْ عقيدةً فكريةً. إنّ ما تقدم لا يتركُ مجالاً للتفكير في أن شيحا ينتمي أو يُحاولُ الانتماءَ إلى حزبٍ أو مشروعٍ سياسيٍّ واجتماعيٍّ. قد يقول قائل إنه يُوَرِّي ما يُبْطِنُ خلف هذه الأقوال، وهذا مبدأٌ جَلِيٌّ من مباديءِ الايديولوجيين. إنَّ من يقول هذا القولَ لابد من أنّه قد نسيَ أن

---

(١) الممارسة الايديولوجية، صـ١٥٣.

(١) في السياسة الداخلية، مقالة: من أجل العودة إلى الواقع.

(٢) يحاول الكاتب تعريب المصطلَح على وزن أفعولة.

(٣) مفهوم الايديولوجيا، صـ٩.

هذه مقالاتٍ كانت تُقدَّم إلى الجمهور كل صباح، فهل يستخف الناقد بعقول القُرّاء، وهو يوجّه خطابه النقدي، أيضاً، إليهم.

يُنبّهنا عبد الله العروي إلى ثلاثة أمور في ما يتعلق بمفهوم الايديولوجيا، هي:

١. "مفهوم مشكّل يجب استعماله بحذرٍ، بل يتحتَّم الاستغناء عنه في معظم الحالات."

٢. "مفهومٌ غيرُ بريءٍ، يحمل في طياته اختباراتٍ فكريةً يجب الوعي بها لكي لا يتناقض صريحُ الكلامِ مع مدلولِه الضمنيِّ."

٣. "مفهومٌ قد يصلح أداةً للتحليل السياسي والاجتماعي، لكن بعد فرزٍ وتجريدٍ لكي يبقى كل باحثٍ وَفِيَّاً لمنهج المادة التي يبحث فيها."(١)

ثانياً: الفلسفة السياسيَّة

" نجد أن الفلسفة السياسية يغلب عليها، في مطلع العصور الحديثة، طابعُ الدعوة إلى التغيير الذي فرضَتْه ظروفُ إقامةِ المجتمعِ الرأسمالي على أنقاضِ النظام الاقطاعي المُنهار"(٢). تبدو هذه العبارة الأكثر قرباً إلى وصف المرحلة التي كُتِبَتْ فيها هذه المقالات، فإنَّ المُتَتَبِّعَ لتاريخِ الحركاتِ السياسيةِ التي كانت سائدةً، على وجه الخصوص، في الوطن العربي في النصف الأول من القرن العشرين، يجدُ فيها هذه السّمة، ألا وهي الطموح إلى التغيير. هذا الطموح عند شيحا يبدو من خلال مقالاته طُمُوحاً واعياً، تَقَدُّمِيَّاً، يُعنى بشؤون المجتمع التعليميَّة، الاقتصادية، الجَمالية، السياسية، والخُلُقية. السؤال الذي يفرِضُ نفسَه هنا؛ هل يبدو فكرُ شيحا فكراً فلسفياً؟ لنحاول تقديم الجواب.

يقول أنطوني دي كريسبني: "ولَئِنْ كانت النظريات السياسية التي تطرحها الفِرَقُ السياسيَّةُ المتباينَةُ تستهدف التبرير والإقناعَ فإنَّ الفلسفةَ الحَقَّةَ تستهدف الفهمَ"(٣). لِنَر الآن ما يقولُه شيحا في هذا

---

(١) مفهوم الايديولوجيا، صـ١٢٧.

(٢) أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة، مقدمة الترجمة العربية، صـ١١.

(٣) أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة، صـ١٦.

الصدد: "حلَّ إذن وقتُ السَّعي إلى التعلُّم، قبلَ كل شيءٍ آخرَ، وقتُ السعي إلى الفهم وإلى استجماع جوهرِ العِبْرَةِ القابعةِ في جُملة المَعارف البشرية". يبدو هذا القول فلسفياً بامتياز، حتى إذا أردنا أن نُثْبتَ أنَّ لدى شيحا فِكراً فلسفياً فلابدَّ أن نبحث في مقالاته إلى ما يشير إلى هُمومٍ وأسئلةٍ فلسفيَّةٍ، أي أسئلةٍ حولَ الوجود والجمال والمعرفة والمساواةً والعدالة وبناء المجتمع وغيرها.

يَضَعُ شيحا الاصلاح الخُلُقي، أولاً، في قائمةِ همومِهِ الاصلاحيَّة: "يزدادُ قُرباً إلى الأفهام أنَّ الاصلاح الجوهري الذي ينبغي للبنان أن يطمحَ إليه، إنَّما هو إصلاحٌ خُلُقيٌّ"(١). يقولُ أيضاً: "للبنان أن يكون المَشْتَل لأشياءِ الفكر وللُّغات وللثقافة. أن يمتلكَ، لخدمة الشرق الأوسط كله، كل معارف الشرق والغرب"(٢). ويقول أيضاً: "والحال أنَّ بين سُبُل النهضة في لبنان تعليم الشعب أن يحبَّ الأغنية الجميلة والأشياء الجميلة...إعداد الذوق وتوازن المُدُن أمران مُتَمِّمَان للاستقلال" (٣). هذه الأمور التي يُثيرها شيحا تدلُّ على تفكيرٍ عميقٍ في ما يختصُّ بالواقعِ في نظرةٍ إلى المستقبلِ البعيدِ، وفي هذه المقولات إشارةٌ إلى همٍّ فلسفيٍّ، قد يَنفي وجودَه كثيرونَ، مُتَّبعين مبدأَ التعميم. وسنأخذُ مِثالاً لأجل المقارنةِ، قولَ كمال عبد اللطيف: "أغلبُ الذين اهتموا بالقولِ الفلسفي في الكتابة العربية منذ نهاية القرن الماضي، وإلى حدود منتصف هذا القرن يندرج مجال اهتمامهم في دائرة الأدب والصحافة والإصلاح السياسي والتعليم. فالفيلسوف هنا مجرد أديب، صحفي، مُصلح ومعلم، وهو في نهاية التحليل مجرَّد كاتبٍ"(٤). انطلاقاً من هذه الملاحظة العامة، لابد أن نُوجد ما هو أكثر دلالة على قُرب مقالات شيحا من الفلسفة، وقد تفيدُنا المقارنةُ قُرباً من هذه الغاية، أو بُعداً عنها.

ما بينَ الايديولوجية والفلسفة السياسيَّة

---

(١) في السياسة الداخلية، مقالة: سَحَرَة مبتدئون.

(٢) في السياسة الداخلية، مقالة بدء السنة المدرسية.

(٣) في السياسة الداخلية، مقالة: فن العمارة وفنون التزيين.

(٤) في الفلسفة العربية المعاصرة، صـ٢٣.

في هذه المقارنة المُزْمَعِ أن نقومَ بها لابدَّ لنا من روائز، كما أن لكلِّ قياسٍ مقاييس، لأجل هذه الغايةِ سنعتمد خمسة معايير[1] قدَّمها باقر جاسم محمد مُمَيِّزاً بين الايديولوجيا والفلسفة، آخذين بِعَيْنِ الاعتبار أن الفلسفةَ السياسيةَ فرعٌ من فروعِ الفلسفةِ. وسنقدِّم عندَ كَلِّ معيارٍ، أو أكثر، رَدّاً يشير مباشرةً إلى الفرضيَّةِ المطروحةِ.

- **المعيارُ الأوَّلُ:** "الفلسفة منظومةٌ فكريةٌ بحثِيَّة مفتوحة وقابلة للتطور، بينما الايديولوجيا تُمَثِّلُ منظومةً محدودة ومغلقة".
- **المعيارُ الثاني:** "تؤكِّد الفلسفة على حريّة عمليّة التفكير والتفلسُف، بينما تنزَع الايديولوجيا إلى أن تكونَ عقيدةً نهائيةً لها طابعٌ نهائيّ".

يقول شيحا: "فَيَا لها من مشاغلَ بائسةٍ، في الحقيقة، تلك التي مُؤَدَّاها ردُّ العالم الواسع إلى بضعة حدود وبضعة شِعارات وبضعة تواريخ!... ويَا لَهَا من همومٍ مسكينةٍ تلك التي لا يتجاوزُ أمرُها تَضييقَ حُبِّ المعرفة في نفوس أولادِنا ومعاصرينا"[2].

- **المعيارُ الثالث:** "لا ترتبطُ الفلسفة بشكلٍ مباشر بالأحزاب والجماعات السياسيّة، بينما تكونُ العلاقةُ بين الايديولوجيا والأحزاب والجامعات السياسيّة وثيقةً جدّاً إلى الدرجة التي تجعلُ تعريفَ الايديولوجيا يستدعي إلى الذهن تعريف الحزب السياسيّ والعكسُ صحيحٌ".

يأتي القولُ الفصلُ، الآن، لشيحا إذ يقول: "وإنّ أقربَ المشروعاتِ السياسيَّة والاجتماعيّة إلى العالميّة وأوفرها نُبْلاً لَتَنْطَوي، بهدوءِ بالٍ، على ما لا يُحصى من الأَشْرَاكِ وصُنوفِ التهديد"[3].

- **المعيارُ الرابع:** "قد تُفرِزُ الفلسفة نَمَطاً نظريّاً يصلح لأن يكون إيديولوجيّاً، ولكن لا يوجد إيديولوجيا أفرزتْ فلسفةً ما على الاطلاق، فالفلسفة تُنتج الأفكار أما الايديولوجيا فهي تستهلك ما تنتجه الفلسفة".

---

(١) قدم باقر جاسم محمد هذه المعايير في مقالة بعنوان: الماركسية: أهي فلسفة أم إيديولوجيا؟

(٢) في السياسة الداخلية، مقالة: آفاق.

(١) في السياسة الداخلية، مقالة: العيش المحفوف بالمخاطر.

♦ **المعيارُ الخامس:** "الفلسفةُ أوسعُ أُفقاً وأكثر رحابةً من الايديولوجيا".

يقول شيحا: "وذاك أنَّ ما يُسمَّى أحزاباً سياسيّة خليقةً بهذا الاسم ليس له، بين ظهرانينا، وجودٌ. هذا فيما المحاولاتُ التي كَبَتْ عادت لا تُحصى. يوجد نظامٌ للحزب السياسيّ لا يريدُ المُواطِنُ اللبنانيّ أن يقسرَ نفسَه عليه..."(١). يأخذُ شيحا موقفَ المُنَظِّرِ السياسيّ، فهو لا يدعو إلى الانتماءِ إلى حزبٍ بعينِه، كما أنَّه لا يطرحُ عقيدةً فريدةً وحيدةً، بل يَنْظُرُ بِعَيْنِ الفيلسوف الناقدِ إلى الواقعِ السياسيّ، مُحَاوِلاً توجيهَهُ بإيقادِ الفكرِ.

الخُلاصةُ:

يقول عبد الله العروي: "إن وضوح المفاهيم المستعمَلة لا يُوصِلُ بالضرورةِ إلى إدراكِ الواقعِ. لكنْ على الأقل تُخَلِّصُ الباحث من التساؤلات الزائفةَ. وما أكثرَ التساؤلات الزائفة في ميدان الذِّهنيات"(٢). لذلك فإن فائدةَ هذا البحث ليست في إعطاءِ صورةٍ واضحةٍ لمفهومَيّ الايديولوجيا والفلسفة السياسية، إنما تكونُ في مقارنةِ هَذَين المفهومين في ضوء مقالاتِ الكتابِ موضوعِ الدراسةِ، فبهذا نتجنَّبُ إسقاطَ المفاهيم "مسبقةِ الصُنْعِ" على أقوالٍ نَشَأَتْ في تربةٍ اجتماعيةٍ وسياسيَّةٍ لها خصوصيتُها الجغرافيّة والاقتصاديّة والديموغرافيّة، وأقصدُ بها لبنانَ. وتعزيزاً لهذا الموقف أَذْكُرُ قولَ دي كريسبني: "الفلسفة السياسيّة الجديرة حقاً بهذا الاسم هي بناءٌ منطقي متماسك ينبغي أن ننظرَ إليهِ أوّلاً وقبل كل شيء في ضوء العلاقات بين مكوِّناته الفِكرية التي تستهدِفُ كشف جانبٍ معين من الواقع"(٣).

الخاتمةُ

يبقى أن نقول إنَّ هذه المقالات تبقى مَنهلاً فيّاضاً، ومرجعاً دائماً، وناقوساً مُنذراً، في كل حين، ينبغي لكلِّ من مُشتغلٍ بالشأن العامّ العَودُ إليها ،والعَودُ إليها حكمةٌ، ولا أُغَالي في القولِ، إذْ أَخالُ حينَ أطَّلِعُ عليها أنَّ جريدةَ هذا الصباح بين يديّ، إنَّ هذا يَضَعُنَا أمامَ

---

(٢) في السياسة الداخلية، مقالة: حتى تكون لنا عقيدة سياسية.

(٣) مفهوم الايديولوجيا، صـ١٢٩.

(١) أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة، صـ١٦.

احتمالَيْن؛ فإمَّا أنَّ الواقعَ في لبنان لم يتغير قيدَ شعرَةٍ، أو أنَّ أفكارَ ميشال شيحا على قَدْرٍ من الرَّحابةِ، لتكونَ مُعَبِّراً عن كلِّ الأزمنةِ، وإذْ تَبْدو هذه صفتُها، تغدو الفلسفةُ هي السّمةُ الغالبةُ على أفكار شيحا، وفي حينِ كانت الشواغِلُ الأَهَمُّ لهذه الفلسفةِ، وما زالتْ، هي السياسة الداخَلية اللبنانية، نستطيع أن نقول إن ميشال شيحا هو فيلسوف السياسة اللبنانية بامتيازٍ.

رَحَلَ شيحا مُطْمَئِنّاً "لأنَّه لا توجد بلادٌ أُخرى تشبه لبنان، يَسَعُنَا الاطمئنان إلى أنَّه سيبقَى يُشْبِهُ نفسَه".